الشعر المصري في مائة عام :

علي الليثي

الاستاذ محمد سيد كيلاني

١٨٢٢ — ١٨٩٦

— ٣ —

لليثي قصيدة نظمها في حادثة قمر النيل المشهورة واستقالة وزارة رياض باشا . وهي لا تقل عن تلك التي تحدثنا عنها في صدق العاطفة وقوة الاحساس . ومطلعها :

العيد واف وحسن الحال منتظم ... والأمن عم وكل الناس قد نعموا
وانجاب عن مصر ليل مد غيهبه ... تنميق واش بنصح صبحه حكم
يا طالما قد سمي الساعون وارتقبوا ... شق العصا وزفير الشيظ محتدم
لولا الأناة ولولا الحزم لابتهجت ... نفوسهم وعرى التدبير تنفصم
كل له غرض فيما ينعقـــه ... والألمعي يرى ما ضمه الكلم
ماذا عليهم إذا ما سيد كرما ... أغضى وأرضى رعاياه وسرهم

هكذا بدأ الليثي قصيدته ، فهو في هذه الأبيات فرح مبتهج لحلول الأمن والطمأنينة بعد فترة من الخوف والهلع سادت بين المصريين قبيل حادثة قمر النيل ، ويشير الى دسائس العنصر الجركسي وبخاصة عثمان رفقي باشا وسعيهم في الإيقاع بين الخديو والعرابيين . وينوه بحلم الخديو وعفوه . وهو في هذا غير متكلف ولا متصنع بل إنه ليرسل القول من أعماق فؤاده .

ومنها :

الصفح والعفو أولى ما يزول به ... داعي التنافر والأحوال تلتئم
هذا فتى الحلم توفيق الزمان بدا ... من حلمه ما أنذت عن حمله الأمم
فهل رأيت مليكا في شبيبته ... قد سهل الصعب حتى كاد يتهم
سمح الخليقة رحب الصدر ذو أدب ... لم يعمل السيف فيما يعمل القلم
حرصاً على العدل لم يعجل ببادرة ... عند الحفيظة حيث الغير ينتقم

وليس في هذه الأبيات من المعاني سوى مدح الخديو بالحلم وقد أطنب في هذا كما ترى ولعل السر في ذلك هو الفرح الذي طغى على المصريين حين تخلصوا من وزارة رياض وظفروا بوزارة شريف التي عملت على ارضاء الشعب بانتهاج خطة الاصلاح . فلا عجب إذا اندفع الليثي يشيد بحلم الخديو ويطيل في الإشادة .

ومنها :

لما رأى جنده من شبهة عرضت ... قد عارضوا واتقوا بالحزم واحتزموا
يوم العروبة إذ شوال منتصف ... راموا انتصافا وكاد السلم ينحسم

الدين وزهدا في متاع الحياة الدنيا . فهل هؤلاء يرضون تحت وطأة الفقر والحاجة ؟ وقد توهم الشيوعيون أن في مقدورهم تقويض سلطان الدين لأنهم ظنوا أنه يستمد سلطانه من فقر الجماعات وجوعها ووقوعها تحت سلطان القادة المتجبرين يسومونهم سوء العذاب ، وفاتهم أن الدين يستمد سلطانه من أكرم ما يوحيه العقل وأشرف ما يبعث من عواطف في النفس .

والانسان الذي يكون كل همه السعي في طلب القوت وكل تفكيره منصرفا لاستنباط الحيل للحصول عليه ، لا يجد وقتا يساعده على التأمل في الدين وتعاليمه أو التفكر في مصيره . بل إن الإنسان إذا اشتد به الظلم والفقر ، كثيرا ما يؤدي به هذا إلى الكفر والخروج على طاعة الدين ومخالفة أوامره .

هذه نظرة عجلى في أركان المذهب الشيوعي نستطيع أن نستخلص منها أن الشيوعيين قد خيل لهم وهمهم أن الانسان كائن لا يهمه إلا امتلاء بطنه ، وأن همه الأكبر لا يخرج عن هذا العمل فهو لا يسعى للبحث عن المثل العليا ولا عن الغذاء الروحي الذي يغذي النفوس والتي هي دائما في تعطش إليه ، ما دام قد وجد ما يشبع كرشه

(أسيوط) عبد الوجود عبد الحافظ

أجاب سؤلهم وهو الجـــدير به ... فقابلوه بحسن الحمد واحترموا
وقبلوا ســـدة سادت بأخصه ... في موقف تتقيه العرب والعجم
وعاضهم من رياض غرس أنعمه ... وهيئة في نظام الملك قد خدموا

وفي هذه الأبيات ترى الشاعر يقف في صفوف العرابيين فيصف ثورتهم وهجومهم على قصر النيل بأنها شبهة لهم ويدافع عنهم بقوله « راموا انتصافا » . فهو يقرر بأنهم كانوا مظلومين مغبونين، وأنهم قاموا لإزالة ما هو واقع بهم من الجور والطغيان ولا شك في ان الشاعر قد أغضب الخديو في هـذه الابيات التي كشف فيها عن موقفه من الحركة العرابية . وتتجلى عاطفة الليثي بصورة أوضح في هذه الأبيات :

وهب لجندك ما قد كان وارعهم ... بعين أروع سيا طبعه الكرم
هب أنهم أخطأوا لم يستخف بهم ... خوف به ثورة الأحشاء تضطرم
فكان ما كان من أمر مغبته ... والحمـــد لله لم يلمم بها ألم
رفقاً وعطفاً وبالصفح الجميل أعد ... عادات بر لهم في عودها عظم
فهم لملكك أنصار وهم عدد ... عند الوغى ومثار النقع مرتكم
وهم سيوفك في يوم يفر به ... قلب الجبان وموج الحرب يلتطم
وهم دروع وعاياك الذين لهم ... في وصف معناك ما تعنو له الأمم
حاشاك مولاي أن تصغى لذي غرض ... لديه سيان من يحيي وينعدم

لن تجد شاعراً واحداً دافع عن العرابيين في هذا الموقف غير الليثي . وهو يظهر في هذه الأبيات في ثوب الوطني المخلص الذي يغيض حباً لبلاده وغيرة على وطنه. فهو يخاطب الخديو محاولا التهوين من شأن تلك الحادثة الخطيرة ، مجتهداً في التقليل من قيمتها . ويذكره في نفس الوقت بأن الجيش هو درعه الوحيد الذي يلجأ إليه عند الشدائد والخطوب . فلا بد من العطف على رجال الجيش والاحسان إليهم وعدم الالتفات إلى الوشايات التي كان يسعى الجرائد بها في حق المصريين . وهذه من غير شك وقفة مشرفة من وقفات الليثي انفرد بها دون سواه من شعراء عصره .

* * *

وقد مدح الليثي الخديو توفيق في أغسطس من عام ١٨٨٣م بقصيدة مطلعها :

ساعد الجـــد والمراد تيسر ... وصفاء الزمان كالصبح أسفر
ثم بنا نتشق حدائق أنس ... روحها بالذي يسرك نور

نتهز فرصة فليـــل الأماني ... بعد يأس قد استنـــار وأقمر

وفي هذه الأبيات يبدو الشاعر فرحا مسروراً ، متغنياً بالصفاء الذي جاء بعد الكدر، والرخاء الذي أعقب الضيق ، وانبثاق نور الأماني بعد انقشاع ظلمات اليأس . وذلك على أثر تحسن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية عقيب الاحتلال . وقد تغنى شعراء كثيرون بما أصاب البلاد من الرخاء . والليثي أحـــد هؤلاء الذين نسوا الاستقلال المفقود وألهاهم الصفاء والرخاء عن تحكم البريطانيين في مرافق البلاد . ثم قال :

شنف السمع واطرب الجمع وانثر ... من بديع المقال حبات جوهر
وانعت الحالة التي أنت فيهـا ... ناعم البـــال بالسرور مؤزر
في زمان حلا كرشف رضـاب ... من حبيب بغير وعـــد تيسر
أو مـــدام أدارها بدر تم ... من رأى شمسها فلا يتكدر
فالتواني حليفه العجز فانشط ... للتهاني عســاك بالأنس تظفر

نشأ الليثي في مجالس اللهو والسرور ، وطبع على حياة المرح والطرب بين المغنين والمغنيات . فلذلك تراه يكثر في شعره من ذكر العبارات والصور التي يستمدها من هذا الجو المرح الطروب — كتشنيف السمع ، واطراب الجمع ، ورشف رضاب الحبيب ، وشرب المدام ، وذكر الندمان ، وأخي السمر ومجالس الأنس ووقت الصفاء ، إلى غير ذلك مما توحيه إليه بيئته التي عاش فيها . وقد أثرت هذه البيئة في شعره وخياله وأفكاره ومعانيه ، وطبعته بطابع خاص انظر إليه حين يقول :

حديثـه بين أرباب النهى سمر ... يعزوه المجد منقول ومعقول

أو حين يقول :

فاسمح فديتك فالأوقات آنسة ... والحظ أقبـل بالاسعاد طالعه

أو حين يقول :

بها تزف الأماني في مواكبها ... لكل راج ويرعاها أخو السمر
والأنس دار بأقداح السرور وقد ... حيي الرعية واستملى أخا النظر

تجده يذكر « السمر » و « الأنس » و « اقداح السرور » وهذا من غير شك وليد الوسط الذي درج فيه

وكانت مجالس الأنس والسرور تعقد في الحدائق بين الأزهار والرياحين والجداول والطيور والأشجار . وقد أثرت هذه المناظر في خيال الليثي أكثر من التغني بها في شعره . ومثال ذلك قوله:

والدهر وافى بما كنا نؤمله   والروض غنت كما تهوى سواجعه
طافت جداوله بالدوح ساقية   كأنه طفلها تحنو فترضعه
تشدو على عودها الورقا كأن لها   إلفا يردد شكواه تراجعه
وبلبل الأيك أبدى لحنه طربا   فرنح الغصن حتى قام راكعه
وللنسيم بهاتيك الربا أرب   إن مر يحلو ونفح الطيب ضائعه

فهذه الصور التي جاء بها هنا قد أخذها من الواقع الذي يحيط به في حدائقه الخاصة وبساتينه ، وفي حدائق اسماعيل ومتنزهاته ورياضه ، وفي حدائق الامراء والكبراء الذين كان يغشى دورهم .

وقد أعجبني من هذه الأبيات قوله :

طافت جداوله بالدوح ساقية   كأنه طفلها تحنو فترضعه

فتشبيه الجدول حين يسقى الدوح بأم ترضع طفلها يحمل صورة شعرية جميلة تجعلنا نعطف على تلك الأم وذلك الطفل .

وللشاعر قصيدة في رثاء عبد الله فكري مطلعها :

نذم المنايا وهي في النقد أعدل   غداة انتقت مولى به الفضل يكمل
تخطت أناسا من كثير تمدهم   وغالت وحيداً من قليل يحصل
ونحن بنى الدنيا نباين فعلها   فلا تنتقي حراً عليه يعول
كأن المنايا في انتقاها خبيرة   بكسب النفوس العاليات تعجل

وليس في الأبيات معنى جديد ، بل هي بعض المعاني القديمة التي سبق إليها منذ قرون ، لم يحسن أداءها ، ولم يوفق إلى صياغتها في أسلوب جيد ولا في عبارة قوية . وقد شاع بين شعراء هذا الدور افتتاح قصائد الرثاء بمثل هذه الديباجة التي يذمون فيها المنايا ويتحدثون عن خبرتها في انتقاء الأخيار والأفاضل ثم قال :

فتم لها من منتقى الدر حلية   بها العالم العلوي أنسا يهلل
وتم نظام العقد وازينت به   تحور بدور الحور وهو مفصل
وكل بعبد الله فكري مهيم   ينافس فيه غيره حيث ينزل
فما شغلته عن شهود مليكه   ومن كان عند الله لا يتحول
دعاه بشير القرب أن جد للقا   لتحظى بما قد كنت ترجو وتأمل
فأهداه طيب الروح وارتاح للبقا   ومن يطلب الأعلى له النفس يبذل
وحل مقاما لا يحيط بمثله   سوى مهتد يرعى الكمال ويعدل

في هذه الأبيات انتقل الليثي عن الدنيا إلى الآخرة وشاهد عبد الله فكري وقد التفت حوله الحور العين وتنافسن في القرب منه والظفر بوصاله . وهذا عبث وهراء . وفضلا عن ذلك عباراته جاءت في منتهى الضعف والسقم . وما أثقل قوله « تحور بدور الحور » . ومن مظاهر افلاسه اللغوى قوله « فتم لها من منتقى الدر حلية » وقوله في البيت الثاني « وتم نظام العقد » فكرر الفعل « تم » في بيتين متتاليين . وكذلك قوله « انتقت مولى » و « فلا تنتقي » و « كأن المنايا في انتقاها » و « فتم لها من منتقى » فكأن اللغة وقد نضب معينها وضاعت مترادفاتها فلم يجد أمامه غير فعل واحد هو « انتقى » وقد اتخذ هذه الابيات مقدمة مهد بها لانتقاله إلى وصف مناقب عبد الله فكري التي استحق بها هذا النعيم المقيم فقال :

غراس مساعيه جناه تنعما   ومن ماء رحماه يعل وينهل
لقد كان ذا دين قويم وعفة   بها ساد أمثالا لديه تمثلوا
لقد كان ذا بر عطوفا مهذبا   سجاياه صفو القطر بل هي أمثل
رقيق حواشي الطبع سهل محبب   إلى كل قلب حيث كان مبجل
كريم السجايا لا الدنايا تشينه   عظيم المزايا إذ يقول ويفعل
شمائله لو قسمت في زماننا   على الناس لازدانوا بها وتجملوا

وهذه كلها من المعاني التافهة التي يحوم حولها الشعراء في مثل هذا المقام ، ولا يحتاج إلى القول بأنها متكلفة مصطنعة . ولن تجد الشاعر مهما بلغ به من الضعف مشقة في سرد مثل هذه النعوت . والذين رثوا عبد الله فكري اشتركوا في هذه المعاني فمنهم من أوجز ومنهم من أسهب . ومثال ذلك قول حفني ناصف :

باللطف واللين والدين الرصين له   مقام سبق عليه قط ما غلبا
ما روح النفس بالدنيا مفاكهة   إلا قضى من فروض الدين ما وجبا
قضى الحياة ونصر الدين ديدنه   لا ينثني رهباً عنه ولا رغبا
وكان مغرى بفعل الخير يحسب في   إسدائه أنه قد أدرك الأربا

وقد أطال الليثي على غير جدوى ، وأتى بالمعنى القليل في لفظ كثير . فالمعنى الذي في قوله « رقيق حواشي الطبع ... » هو عينه الذي في قوله « كريم السجايا ... » وقول الليثي :

لقد كان ذا دين قويم وعفة   بها ساد أمثالا لديه تمثلوا

قريب جداً من قول حفني ناصف :

باللطف واللين والدين الرصين له   مقام سبق عليه قط ما غلبا

وعبارة حفني ناصف وهي «مقام سبق عليه قط ما غلبا ..» أقوى بكثير من عبارة الليثي «بها ساد أمثالا لديه تمثلوا ..»

ثم انتقل الليثي بعد ذلك إلى الإشادة بمكانة عبد الله في عالم الأدب فقال :

فقدنا عميـــاه ولكن بيننا … بديع مزاياه بها نتمثـــل
فكم أدب غض وحسن ترســل … لآيانه عبـــد الحميد يذلل
فما الفاضل القاضي إذا جاش صدره … وأبدع في معنى عليه يفضـل
ومهما صبا الصابي وأبدى بدائعاً … فإن ضجيج الحور منه لأ ذكل
وما ابن هلال حينما حـل بدره … وأطلق من الفكر إلا مكبـل

هكذا أمضى الليثي في غير تحفظ ولا احتراس يزرى بعبد الحميد الكاتب، والقاضي الفاضل، وأبي اسحاق الصابىء، وأبي هلال الصابىء، وهو من أجهل الناس بهؤلاء الكتاب. ولولا ضيق في خياله وضعف في تفكيره لما جاء بهذا اللغو الذي لا خير فيه، وأفضل منه قول مصطفى نجيب:

أقت من الآداب نهجاً مسدداً … قويماً فكل في الرثاء أديب

قلنا إن الليثي أزرى ببعض القدماء؛ أما حفني ناصف فقد كان أعقل بكثير من الليثي، فلم يحط من شأن القدماء، إنما حط من شأن معاصريه. والفكرتان تقومان على السلبية أي نفي وجود الأمثال والأشباه. ولم يزد الليثي على هذه الأبيات فاكتفى بالسلبية. أما حفني ناصف فكان كما سترى فيما بعد سلبياً وإيجابياً إلى حد بعيد. ولم يصدق لا في سلبيته ولا في إيجابيته.

وقال :

مضى من فقدناه عزيز منـاله … وآثاره فينـا تضوع وتنقل
فلو أنصفتنا أنفس علقت بنا … لحامت على نعش به البحر يحمل
فيا لهف الخلان حيث فقدنه … ويا لهف الأقران ماذا تحملوا
ويا لهف الآداب بعد عميـدها … ويا لهف الكتاب إن عن معضل
ويا لهف الإيناس من بعد نأيه … ويا لهف الجلاس إن غص محفل
فويا لهف مثلي وهو أولى تلهفاً … على فقد من كنا به نتجمل

هكذا ندب الليثي عبد الله فكري وناح لموته ورثى لحال هؤلاء الذين فجعوا به من الخلان والأقران كما رثى لحال الآداب والكتاب والإيناس والجلاس. ولا يظهر على هذه الأبيات شعور داخلي مبعثه الأسى والحزن، بل ظاهر عليها التكلف والتصنع. وكرر الفعل «فقد» فقال «مضى من فقدناه.» و «حيث فقدنه» و «على فقد.» وهذا يدل كما ذكرنا سابقاً على خلو جعبته من المترادفات.

وقال :

خليل الذي قد كان أدرى بخلتي … وبدر أعنى الحادثات ويحمل

والليثي في هذا البيت يقول غير الواقع. ذلك لأنه كان أقرب الناس إلى الخديوين اسماعيل وتوفيق. وكانت داره كعبة يحج إليها أصحاب الحاجات. فهو الذي درأ الحادثات وحملها وجمع بين «خليل» و «خله» و «أدرى» و «يدرأ» وهذا مما يوجب الثقل على اللسان والأذن. ثم قال :

نأى عن محبيه وأقسم جازما … بأن لا يؤوب الدهر ما طاب منزل
وأقسم كل من أخلاه موقناً … بأنا إلى لقياه شوقا سنرحـل
كلانا بصدق بر عنـــد يمينه … وبالرغم ما قلنا وقال المكمل

وهذا لغو وعبث. يقول بأن عبد الله فكري أقسم ألا يعود ما صفا له العيش في الجنة. وأقسم خلانه على اللحاق به شوقا إليه. ويقول إن كليهما صادق في يمينه. وهذا هراء لا طائل وراءه.

وقال :

ولولا أمين المكرمات الذي إلى … مخايله من الأبوة ينقــل
فتى الجد والعلياء والصدق والحيا … وأوفى أمين يرتجى ويؤمـل
يشم شـذا المرحوم منه ويجتلى … بغرته اليمن الذي يتهلل
لذبنا أسى ممـا عرانا من النوى … ونحنا كما ناح الهديل المبتل

وفي هذه الأبيات انتقل الشاعر من البكاء على عبد الله فكري إلى التحدث عن ابنه. ولم يوفق إلى معنى جديد ولا إلى صورة لطيفة بل هوى إلى الحضيض. وقوله «يشم شذا المرحوم» من تعابير الدهماء. وقال :

عزاء عزاء أيها الشهم واحتسب … وأيقن بأن الله ما شـاء يفعل
تجلد ولا تبد التضجر والأسى … فانك ممن للمعـالي يؤهل
فمثلك من يسلى سواه إذا جنت … عليه الليـالي واعتراه التنزل
ومثلك من يرعى شئون مراعه … ويسعى لمان قلبه يتململ